فى بيت السيد «أحمد عبدالجواد» تبدأ أحداث «الثلاثية» ولا أجمل من أمينة بطلة لتلك البداية، كانت فى الأربعين، متوسطة القامة، تبدو كالنحيفة، ولكن جسمها بض ممتلئ فى حدوده الضيقة، ـ ويكمل «محفوظ» الوصف ـ : «وجهها مائل إلى الطول، الجبين دقيق القسمات، ذو عينين جميلتين تلوح فيهما نظرة عسلية حالمة، وأنف صغير دقيق يتسع قليلاً عند فتحتيه، وفم رقيق الشفتين ينحدر تحتهما ذقن مدبب، وبشرة قمحية صافية تلوح عند موضع الوجنة منها شامة سوادها عميق نقى».

ولا يعود محفوظ إلى هذا الوصف أبداً ولا «الثلاثية» إلا عندما يشيخ الوجه، ويحدودب الظهر، ويدب الشيب فى شعرها، فى عمرها الذى يمتد إلى ما يزيد على ستين عاماً، وإن كانت ستبدو ساعتها أكبر من ذلك بنحو عشر سنين، بحسب وصف زوجها لها، وربما كان فى ذلك إشارة إلى ذوبان جسدها فى روح «الثلاثية» وأسرتها، فمهما بلغ جمال الجسد يظل دائماً يموت بالموت أو بالحياة، تماماً كما ماتت أجساد «غوان» وبنات ليل فى حياة السيد «أحمد عبدالجواد».. «جليلة»، «زنوبة»، «أم مريم»، غيرهن..، أما الروح فلا يذبل عمرها ولا جمالها مهما شاخ الجسد حزناً على صباه الهارب.

منذ بداية «الثلاثية» يظل نجيب محفوظ يلح على وصف منزل السيد «أحمد عبدالجواد»، جدرانه العالية، سلالمه، روح من الوحشة تعشعش فى البيت، ليكشف عمق انعزال «أمينة» داخل ما سماه: «القفص».